٢٩/٤/٩٩م

الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الاسلامي

العدد الثالث والثلاثون

السنة الثامنة

خريف العام ١٤١٧هـ/١٩٩٦م

رئيسا التحرير

الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول

محمد السماك

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨١١٥
التاريخ ١٢/٢/١٤٢٠

تصدر عن:

دار الاجتهاد للابحاث والترجمة والنشر

ص. ب. 5581/14 ــ بيروت ــ لبنان ــ تلفون: 866666، 862205

ساقية الجنزير ــ بناية برج الكارلتون ــ الطابق الثاني

التوزيع في الوطن العربي وكافة انحاء العالم:

الفلاح للنشر والتوزيع
AL-FALAH Publisher & Distributor

صندوق بريد 113/6590 بيروت ـ لبنان ـ
فاكس أميركي 001-212-4781491

ـ طلبات الاشتراك محصورة بإدارة مجلة الاجتهاد

الاشتراك السنوي:

ـ المؤسسات والجامعات والهيئات في أقطار الوطن العربي وسائر الدول الأجنبية ١٠٠ دولار أميركي.

ـ الأفراد:
في أقطار الوطن العربي ٧٠ دولاراً أميركياً
خارج الوطن العربي ٧٠ دولاراً أميركياً
تدفع اشتراكات الأفراد مقدماً.

التسديد:

١ ـ إما بشيك مسحوب على أحد المصارف لأمر «دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر».

Dàr Al-Ijtihad For Research. Translation and Publication

٢ ـ أو بتحويل إلى العنوان التالي:
حساب «الاجتهاد»
رقم ٠٠،٠٤،٠١،٠٢٢٩٥٧ دولار أميركي
البنك السعودي اللبناني ـ الفرع الرئيسي
تلكس LE ٢١٤٦٩ LABANK ـ
ص. ب. ٦٧٦٥ ـ ١١ ـ بيروت ـ لبنان

Account «AL-IJTIHAD»
No. 00,04,01,022957 in US Dollars
Saudi Lebanese Bank, Head Office
Telex: LABANK 21469 LE.
P.O. BOX: 11-6765- Beirut, LEBANON

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الاشرف

ثبت الموضوعات

• الاقتصاد السياسي العربي التاريخ والإشكاليات	الفضل شلق 5
• الأرض والسلطة في عهود الخلافة العربية الإسلامية	محمد مراد 19
• العلاقات الاقتصادية بين العالم الإسلامي والغرب: رؤية تاريخية	خالد محمد عَزَب 71
• الصليبيون في بلاد الشام: صفحاتٌ من النشاط الاقتصادي	حاتم عبد الرحمن الطحاوي 89
• جمارك البهار في مصر العثمانية 1517 ـ 1816م	محسن علي شومان 129
• الاقتصاد والفقه والمجتمع: دراسةٌ عن الخلوّ في الأوقاف بمصر في العصر العثماني	محمد عفيفي 179
• الوقف: قائمةٌ ببيليوغرافية منتقاة	محيي الدين عطية 187
• صعود الغرب (وليم ماكنيل): عرضٌ وتلخيص: الحلقة الأُولى	الفضل شلق 199

الإسلام في مجده الأول*

(موريس لومبار)

مراجعة
غسان طه

يتيح كتاب موريس لومبار حول «الإسلام في مجده الأول. . .» للقارىء الاطلاع على مجمل نتاجات الفكر الإسلامي في مجال تركيز الدولة الإسلامية من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر ميلادياً وهي حقبة مهمة في حياة الأمة الإسلامية عاشت خلالها أزهى مراحل تطورها حيث يعالج بين دفتيه الأسس المادية التي كانت تقوم عليها الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس ـ فيعرض للفتوحات الإسلامية الأولى التي قام بها عرب الجزيرة حيث اتجه الفتح الإسلامي منذ البداية إلى بلاد الهلال الخصيب، بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر. ويرى المؤلف أن الفتح كانت نتيجته من الناحية السياسية قيام دولة إسلامية في رقعة فسيحة من الأرض. ومن الناحية الدينية كان من نتائج الفتح نشر الإسلام، ذلك الدين الذي يقوم على القرآن الذي أُوحي به إلى محمد (ص). ومن الناحية اللغوية أدى الفتح إلى اتساع انتشار اللغة العربية. أما من الناحية الاقتصادية فقد نجم عنه اتحاد أراضي مختلفة في تكتل اقتصادي كبير.

تمت الفتوحات الإسلامية بسرعة كبيرة بحيث لم يقع أي انقطاع للحياة العامة

---

* موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى القرن 5 (8 ـ 11م)، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، (منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الثالثة، 1990)، 391 صفحة. وهي الترجمة الثالثة للكتاب بعد ترجمتين في بيروت ودمشق في السبعينات.

بل إن الحياة السابقة على الفتح استمرت كما هي في جميع المجالات. ويلاحظ الكاتب بأن هذه الفتوحات لم ينجم عنها أي شيء من التخريب والتدمير حيث إن الفاتحين لم يكونوا ليحرقوا المدن أو يعملوا على نهبها باستثناء حالة قصور الساسانيين، فلم ينجم عن هذه الفتوحات أي اضطراب في الحياة العامة والمدينية بل كانت الشعوب المغلوبة توفر بطريقة طبيعية الإطارات الإدارية والطاقات الذهنية كما لعبت الشعوب المسيحية والفرس الذين اعتنقوا الدين الإسلامي أو الموالي ـ كما كانوا يسمون ـ دوراً حاسماً في إقامة دعائم الحضارة التركيبية، الحضارة الإسلامية.

ويلاحظ الكاتب بأن العالم الإسلامي كان خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر مركزاً لحركة عظيمة لعمران المدن حيث كانت المناطق الأولى التي تأثرت أكثر من غيرها بهذه العمليات. إلا أن هذا العالم سيفقد في المرحلة اللاحقة وحدته وسيكتسي الإسلام طابعاً وطنياً فيكون هناك إسلام تركي وإسلام فارسي وإسلام مصري وآخر مغربي.

واعتباراً لما تقدم يعمد إلى دراسة العالم الإسلامي بلداً بلداً حيث يبحث حالة كل بلد من الناحية الجغرافية ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية وعناصر السكان والامتدادات الذهنية والمعتقدية التي كانت تركة الحضارات القديمة مع اعتبارات التغيرات الطارئة عليها تحت تأثير العوامل الجديدة. وفي تعرضه للمناطق يشير إلى أن الجزيرة العربية في تلك الحقبة ستفقد دورها السياسي نتيجة نقل الأمويين عاصمتهم إلى دمشق إلا أنها ستحتفظ بدور إيجابي حيث ستبقى محوراً للحياة الدينية الإسلامية بمكة والمدينة، وبالطرق التي ستلتقي عند مكة آتيةً من مصر، وسوريا، والعراق، والمحيط الهندي، والحبشة. هذه الطرق هي نفسها التي سلكها الفاتحون؛ وهي الآن طرق يسلكها الحجاج من دول العالم مما ينجم عنه انفتاح شبكة جديدة من الطرق وتيارات اقتصادية من نوع خاص. وعلى كل حال فإن بقاء الجزيرة العربية محوراً للحياة الدينية أتاح لهذه المنطقة دوراً كبيراً بعيداً عن أجواء الاستغلال السياسي حيث إن السلطة الدينية (الخلافة) كان مقرها دمشق أما المدن الحجازية الرئيسية فلا تغدو كونها أماكن

مقدسة. وأما فتح مصر فقد حمل معه إلى العالم الإسلامي إيجابيات كبيرة حيث ورث المسلمون تقنية صناعة النسيج والسجاد وورق البردي الذي كان لا يزال مستعملاً حتى تعميم الورق في القرن التاسع الميلادي كما قدمت مصر للعالم الإسلامي كميات من الذهب الذي كان مخبأ في قبور الفراعنة ذلك الذهب الذي استخلص وأدخل في دائرة النقد المتداول وسيضرب منه الدينار المصري فضلاً عن أن إنتاجها الزراعي كان ذا أهميةٍ عالمية.

وفي حديثه عن سوريا وبلاد ما بين النهرين يشير إلى أن سوريا تتكون من عدد من الواحات بينها واحة دمشق التي تروي منطقتها المياه التي تهبط من الجبال التي تفصل بين سوريا ولبنان ومن حرمون فهي عبارة عن حديقة غنّاء واسعة الأرجاء تختلط فيها أشجار الجوز بأشجار التين والزيتون، وقد نشطت فيها صناعة المربى، وكانت الشواطىء السورية تنتشر فيها المراسي التي يتردد عليها البحارة المسلمون.

وتتلقى دور صناعة السفن، الخشب الذي ينتجه لبنان؛ وهذه الشواطىء تشكل واجهة البحر الأبيض المتوسط للبلدان الواقعة على الخليج العربي. كما يشير المؤلف إلى أن المناطق السفلى الواقعة بين النهرين والتي كانت مركز الخلافة العباسية عرفت ازدهاراً مدنياً عظيماً.

وقد كانت بغداد والبصرة والكوفة وسامراء التي كان سكانها يعدون بمئات الآلاف من أهم كبريات مدن هذه المناطق. وكانت أرض سواد العراق بخصبها الطبيعي تشبه الأراضي المصرية وبفضل عمل الفلاحين والمزارعين ستمد هذه المدن بما تحتاج إليه من المواد الغذائية ولاسيما من التمر والقمح والشعير وبالأرز الذي ستدخل زراعته إلى حوض البحر المتوسط في المنطقة في العصر الإسلامي.

أما العالم الإيراني فيرى الكاتب بأنه إذا خرجنا من العالم السامي الذي يتحدث اللغة العربية والآرامية؛ تلك المنطقة التي شهدت الانتصارات العربية بدت لنا إيران كأنها منطقة أخرى. ذلك أن إيران كانت في العهد الساساني تشكل وحدةً مع ما بين النهرين والفتح العربي الذي سار على طول الطريق

التي تربط بلاد ما بين النهرين بإيران وآسيا الوسطى والذي طرد آخر الملوك الساسانيين كان أشبه ما يكون بنزهةٍ ممتعةٍ تم فيها للعرب الاستيلاء على الواحات والمدن التي تمتد على طول طريق القوافل لكي يقيموا في تلك البلاد استعماراً جديداً للأرض حيث استقر فيها الجنود الذين أقاموا في بلداتٍ صغيرة قائمة بنفسها.

وفي عهد الخلافة العباسية كان الأنصار الأوائل للدولة العباسية ومستشارو الخلفاء الأوائل ينتمون إلى شمال شرق إيران (خراسان وما وراء النهر)، وفي عهد بني العباس انتهت حركة استعمار الجنود للأرض وحل محلها اتجاه معاكس. فقد أصبحت إيران مركزاً قوي النفوذ وذا تأثير خطير الشأن في جميع أنحاء الشرق الإسلامي. وقد رافق نفوذ الفرس السياسي انتعاش اللغة الفارسية والأدب الفارسي بل إن الفرس بذلوا جهوداً لنشر اللغة الفارسية بين الترك في آسيا الوسطى وفي الهند، وهذه الجهود ستستمر حتى عهد كبار المغول. وقد شاهد العصر العباسي كذلك نمواً بالمساحات الزراعية المروية الأمر الذي سمح بازدهار المدن الموجودة وببناء مدن جديدة. هذا وقد احتفظت إيران في عهد العباسيين وفي العصر الإسلامي كله بنفس التقسيم الجغرافي حيث كان الساسانيون قد أقاموا أربع حكومات مدنية وعسكرية، وكانت هذه الولايات هي أذربيجان التي تمتد في الشمال الغربي، وفارس التي تقع في الجنوب الغربي، وخراسان في الشمال الشرقي؛ وهذه الولايات تتفق مع ثلاثة اتجاهات كبرى: فإن باب أذربيجان ينفتح على أرمينيا والقوقاز، وباب زغروس ينفتح على ما بين النهرين، وباب قندهار يؤدي إلى الهند، وباب خراسان يوصل إلى السهوب وآسيا الوسطى والصين، ومن هذه المناطق تمر الطرق التجارية التي تربط إيران من جهة وطوران والهند من جهة أخرى. وهذه الطرق سلكها الدعاة والمبشرون وبها كان يمر الحجاج الآتون من الصين. كما أن نيسابور التي هي مدخل إيران من الشرق ستصبح في القرن الحادي عشر الميلادي مدينةً تجارية كبيرة بعدما فقدت بغداد مكانتها بل أهم من بغداد نفسها من الناحية الاقتصادية وأكثر منها سكاناً وأوفر عمراناً.

ومن إيران كانت العلاقات مع السهوب الأوروبية ـ الآسيوية تجري خصوصاً على طول نهر الفولغا من إيتل الواقعة على بحر قزوين.

ولما تم فتح المسلمين لبلاد السند في الجنوب منذ عام 712 للميلاد كان عن طريق ممرات الهندوكوش ومع الزمن تمكن المسلمون من السيطرة على الأودية وطرق المواصلات مثل مضيق غزنة الذي يقع على الطريق بين كابل وقندهار وأقام المسلمون في كابل، المدينة التي قامت بجهود لنشر الإسلام. وفي عام 962م تم تأسيس أول دولة تركية مسلمة في إيران. وبين عامي 1014 ـ 1025 للميلاد قام السلاطين الغزنويون بفتح شمال الهند ونشر الإسلام في تلك الأصقاع. واستقرت جماعات إيرانية عن طريق الهجرة على الشواطىء الغربية للهند ولاسيما في الكجرات وبومباي. وكذلك كانت للإيرانيين منشآت على سواحل أفريقيا الشرقية قبل الفتح العربي، هذه المنشآت قويت بعد الفتح نتيجةً لهجرة الإيرانيين كما أن حركة الهجرة الإيرانية التي حدثت في العصر العباسي تمّت عبر المملكة الإسلامية حتى الشواطىء الشامية حيث سينقل المهاجرون معهم الفنون البحرية المنتشرة في المحيط الهندي.

وبعد إيران يتعرض الكاتب لبلاد المغرب الإسلامي وتشمل (أفريقيا ـ والمغرب وصقلية وإسبانيا) نظراً لما تنطوي عليه من إمكانيات اقتصادية ومن موارد بشرية زاخرة وهي مصادر عظيمة للقوة. وهذه البلدان ستستلفت نظر الأمويين الذين سيتجهون إلى أسبانيا، والأدارسة إلى المغرب الأقصى، والرستميون إلى المغرب الأوسط. وبعد الفتح الإسلامي ستعتمد المدن والمناطق لمواصلات بين الكتل البشرية من البربر والمسيحيين، وستختفي المسيحية من شمال أفريقيا بينما ستحتفظ اليهودية بوضعها في تلك البلدان، وأما الجماهير الوثنية فستعتنق الإسلام تدريجياً.

ويلفت الانتباه إلى أن طرفي إفريقيا الشمالية في الشرق والغرب كانا قاعدة لانطلاق الغزو الإسلامي للغرب الذي يقع تحت سيطرة البرابرة، والطريق البحرية التي تربط المشرق الإسلامي وصقلية عن طريق سرت والتي تربط الشواطىء الشمالية للمغرب بأسبانيا.

وتشتمل شبه جزيرة الأندلس على سهول ساحلية وهي المنطقة التي استقر فيها الحكم الإسلامي منذ البداية. أما الجهات الشمالية الغربية من شبه جزيرة الأندلس فلم تخضع للمسلمين بل ستصبح قاعدةً لعمل المسيحيين لاسترجاع الأندلس لحكمهم. ثم يذكر بأن الفتح الإسلامي للأندلس كان سريعاً (711 ـ 714م) ولم يكن له أي رد فعل يذكر بين سكان الأرياف، وأن الجنود الفاتحين من العرب والبربر سيبقون كلهم في أسبانيا وسيستوطنون فيها حيث ستشهد مدنها بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي نمواً عظيماً خصوصاً في أحياء المدن القديمة بشكل لا يمكن مقارنته بما عرفته أسبانيا في عهد الإمبراطورية الرومانية إضافةً إلى الموانىء على مضيق جبل طارق وعلى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. أما المدن التي شهدت نمواً وازدهاراً فهي أشبيلية وقرطبة وطليطلة وسرقسطة وغيرها. وكانت الموانىء تؤمن حركة التجارة والمواصلات عبر جبل طارق، أما في الشمال فكانت تقطع الطرق والممرات جبال البيرينه إلى بلاد الفرنجة، بينما كانت الملاحة المحاذية للشواطىء تربط المرية ببرشلونة ونربونة.

وبعد هذه النظرة إلى بلاد أسبانيا نحول أنظارنا إلى جبهة أخرى لتوسع البربر في جزيرة صقلية التي ستحتل مكاناً مركزياً في حوض البحر المتوسط حيث يجب أن نشير إلى الازدهار الذي عرفته المدن في جزيرة صقلية فقد كان المسلمون هم الذين جعلوا بالرمو عاصمةً نهائية للجزيرة.

وكذلك كانت الموانىء الواقعة على الشواطىء المقابلة للبحر مثل نابولي التي كانت تابعةً من الناحية الاقتصادية لصقلية التي كانت بدورها قطعة مهمة من إمبراطورية الفاطميين وكذلك فإن نقود الفاطميين. كانت متداولةً في جميع المدن في إيطاليا الجنوبية، وكان الدينار الفاطمي عملة متداولة في جميع أنحاء إيطاليا.

ويتطرق بعد عرضه لأوضاع بلدان العالم الإسلامي في نهاية الفصل الأول إلى الوضع اللغوي فيشير إلى أنه كان يوجد قبل الفتح الإسلامي في مقابل مجموعة اللغات السامية، اللغات الهندية ـ الأوروبية، واللغات التركية المغولية. وقد كانت

اللغات الرسمية السائدة قبل الفتح في المنطقة اللغة البيزنطية في سورية واللغة الفهلوية في منطقة ما بين النهرين الخاضعة للساسانيين. ولكنّ اللغة الآرامية كانت لغةً حيَّةً ويتحدثها الجميع.

وقد كان من نتائج الفتح الإسلامي انتشار اللغة العربية التي ستنقسم على نفسها بوصفها لغة الحديث إلى فئتين أساسيتين من اللهجات لهجة المغرب ولهجات المشرق. وإذا كانت الوضعية اللغوية قد شهدت انتصار اللغة العربية في المناطق المركزية من الإمبراطورية الإسلامية فإن الأمور لم تجر على هذا المنوال في طرفي العالم الإسلامي حيث استمرت كتلتان من اللغات ونعني بذلك اللغة الفارسية في المشرق واللغة البربرية في المغرب.

وفي القسم الثاني من الكتاب يتعرض الكاتب لعناوين كثيرة من بينها مشكلات النقد والتجارة وحركة العمران والإنتاج والتبادل التجاري.

فيبدأ بدراسة المحرك الرئيسي لقوة العالم الإسلامي ويعني به النقد. ثم يبحث مسألة ازدهار العمران في المدن والغليان الاجتماعي الذي يحدث نتيجةً للاضطراب الاقتصادي. ففي مجال النقد يرى أن الفتوحات العربية وظهور العالم الإسلامي سيغيران خريطة العالم النقدية حيث سيدخل الذهب المكتنز من جديد في دورة التبادل التجاري ومرجعه الأسلاب والغنائم التي أُخذت من قصور الساسانيين ومن الكنائس الثرية في سورية وما بين النهرين حيث سيقوم عبد الملك بن مروان بضرب الدينار الإسلامي، وكذلك الذهب المكتشف في قبور الفراعنة في مصر والبالغ مئات القناطير. كل ذلك كان يوضع من جديد في دائرة النقد المتداول. والشكل الثاني الذي اتخذه تدفق الذهب إلى العالم الإسلامي هو وصول الذهب المستخرج من مناجم الممتلكات الإسلامية بعدما اتسعت رقعتها مضافاً إليه التقدم التقني الذي تحقق في معالجة المعدن الخام للذهب.

وإلى جانب موارد الذهب فقد توفرت لدى العالم الإسلامي موارد أخرى من الفضة من أسبانيا وآسيا الوسطى وشمال إيران فظهرت النقود الإسلامية حيث كان

يُسك دينار الذهب في دمشق بين سنتي 693 و695؛ والدينار الإسلامي كان يحمل نقوشاً مستديرة وتاريخ صدور القطعة والبسملة. وابتداءً من عصر المأمون سيحمل الدينار اسم المدينة التي سُك فيها وقطعة الدرهم تضرب على نفس الطريقة لكنها من الفضة وتتميز بأنها أوسع وأغلظ رقعةً من الدينار.

ويختم بالقول بأن العالم الإسلامي يتميز في تاريخ النقد البشري بتدفق المعدن الثمين إليه وبفضل وفرة هذا المعدن الثمين سوف تتمكن مراكز المدن من الحصول على جميع المنتجات التي تحتاج إليها.

وتحت عنوان ازدهار العمران في المدن يرى المؤلف أنّ العالم الإسلامي كان خلال الفترة الممتدة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي مسرحاً لحركةٍ هائلةٍ من العمران في المدن، وقد بدأت هذه الحركة بإنشاء مدن سرعان ما أصبح بعضها من أكبر مدن العالم إلى حد تجاوزت فيه حركة التعمير في المدن في العالم الإسلامي ما عرفته هذه الحركة إبّان الإمبراطورية الرومانية.

فولايات الإمبراطورية البيزنطية القديمة (مصر ـ سورية) شهدت انطلاقاً لحركة عمران المدن حيث ستزدهر مدينة الفسطاط ودمشق وإلى جانب دمشق ينبغي أن نذكر القدس التي هي مركز ديني خصوصاً نشاط الحج حيث كان يقصدها اليهود والمسلمون، وكذلك حمص وحماه الواقعتان في وادي العاصي وأنطاكية وحلب وبغداد والبصرة. وكذلك مع نمو المدن سيحل خلال الفتح الإسلامي نظام اقتصادي يقوم على تبادل تجاري واسع النطاق مع المدن، ويأتي هذا النظام ليحل محل نظام اقتصادي ريفي. وهذا التغيير في النظام سيرافقه من ناحية أخرى ازدياد حركة العمران في المدن ذلك الازدهار الذي نستطيع إعادة تركيبه بفضل الآثار التي اكتشفها المنقبون. وفي أفريقيا الشمالية التي كانت تشكل الجزء الأول من ممالك الغرب توفرت لها خلال تلك الفترة الشروط الضرورية لقيام حركة مهمة لتجديد العمران في المدن. وقد عرفت هذه الفترة ازدهاراً كبيراً خصوصاً في تجارة الترانزيت بين الأطراف الغربية للإمبراطورية الإسلامية والشرق الإسلامي وبين أسبانيا وصقلية. وفي مقابل ما كانت تتلقاه أفريقيا من السلع كانت تضمن توغل أنماط الحياة المدينية في

شمال الصحراء حتى ضفاف النيجر.

وقيام مدن مثل فاس والقيروان يتصل اتصالاً وثيقاً بهذه الواجهة الجنوبية لتجارة المغرب، وبازدهار محطات القوافل التي تقع على طرق الذهب والعبيد، وتشكل مدينة فاس المثل البارز لإدخال حضارة تعتمد على نمط الحياة السائدة في الأرياف.

وفي أسبانيا كانت الظاهرة الكبرى في نمو العمران في شبه جزيرة إيبيريا المسلمة هي بدون شك ازدهار قرطبة ونشاطها العمراني. وعاصمة جنوب أسبانيا لم تكن شيئاً يذكر قبل الفتح الإسلامي أي في عهد الرومان. وقد شهدت هذا الازدهار في غضون القرن العاشر الميلادي في عهد هشام الثاني كما نمت ضواحي قرطبة وأشهرها مدينة الزهراء، التي تقع على مسافة 5 كيلومترات من قرطبة ـ وهي عبارة عن مباني تضم مساكن الأمراء والدواوين يحميها حرس من الصقالبة. ذلك هو الاتساع الذي شهدته الإمبراطورية الإسلامية من طرف إلى آخر.

وللتوقف على هذه التساؤلات من الضروري معرفة أنه كانت هناك حقيقتان رئيسيتان تشكلان إطاراً للتطور الاجتماعي في المدن الإسلامية وهما تدفق الذهب واتساع نطاق تداول النقد؛ بالإضافة إلى سرعة التوسع العمراني، وازدياد الاستهلال الناجم عن ذلك من جهة أخرى، كل هذه العوامل أدت إلى زيادة سرعة النشاط التجاري، وإلى حيوية النشاط الصناعي والزراعي مع ارتفاع الأسعار نتيجةً لانخفاض قيمة المعادن الثمينة. وهذا كانت تستفيد منه طبقة من التجار الذين عمدوا إلى عقد صفقات كبيرة تضيف ثروة إلى ثروتهم؛ فكانت طبقة التجار هي الوحيدة التي استفادت من الاختلال النقدي. وفي الأرياف كان يعيش صغار الملاك والعمال الذين يعملون في أراضي الأثرياء. من جهة أخرى فإن عبء الضرائب كان يزداد فداحةً على سكان الأرياف فعانت من البؤس، وكان المخرج الوحيد لهم هو الهروب إلى المدن بعد أن اضطرب في الأرياف الأمن وسخرت الحكومة قواتها للقضاء على الاضطرابات رغبةً في تأمين الاستقرار لكي تتمكن من جباية الضرائب من الفلاحين وضمان فلاحة الأرض. هذا البؤس أدى إلى

ظهور الكثير من الحركات الاجتماعية التي تنطوي على عناصر من الدين والشعوذة ولاقت هذه الحركات إقبالاً من الفلاحين والعبيد والطبقة الشعبية المتواضعة في المدن مما أدى إلى قيام ثورات منها ثورة أرمينيا عام 774 التي كانت نتيجة لتعسف محصّلي الضرائب، وقامت في عهد هارون الرشيد عام 880 ثورات في خراسان، كذلك ثورة الفلاحين التي أعلنتها قبائل الزط (الغجر) في أسفل ما بين النهرين في عهد المأمون (813 ـ 833). وثورة العبيد عام 770 الذين عملوا في الزراعة والمناجم وغيرها من الثورات.

وعلى الصعيد السياسي تبلورت حركة القرامطة في القرن العاشر إلى خلافة الفاطميين الذين انتشر مذهبهم وسلطانهم في أفريقيا وصقلية إلى مصر وسوريا وغربي شبه الجزيرة العربية، وامتد سلطانهم كذلك إلى بلدان الخليج. وفي ظل الفاطميين ـ على عكس البلدان التي تدين بمذهب أهل السنّة ـ كانت المنظمات المهنية تتمتع بكثير من الرخاء والحرية وكانت حركة القرامطة في مصر قد عرفت كثيراً من النجاح عقب تأسيس القاهرة (970م) تلك التي تضم طلبة وأساتذة جامعة الأزهر. وكان عدم قيام التنظيم المهني على أساس من الدين يشكل الفارق الأساسي بين التنظيم الفاطمي ـ القرمطي، والتنظيم الذي كان سائداً في الغرب المسيحي، حيث كان الغرب المسيحي يتمسك بعقائد جامدة ومغلقاً على نفسه؛ في حين أن المسلمين والمسيحيين واليهود كانوا يتمتعون بالعضوية في التنظيمات المهنية الإسلامية على قدم المساواة.

وعندما يتحدث الكاتب عن الإنتاج وسلع التبادل التجاري ذكر أن أهم الخصائص التي تميز المناخ الاقتصادي كان الإقبال على الاستهلاك فى الوقت الذي كان فيه الإنتاج ينمو في العالم الإسلامي. والإقبال على الاستهلاك كان منشؤه المدن الكبيرة وازدهار حركة العمران فيها. وعلى أساس ذلك سعى في كتابه إلى دراسة النباتات الغذائية ومنتجات تربية الحيوانات والأخشاب، ومنتجات الغابات، والمعادن والأسلحة والمنسوجات، والأقمشة ومنتجات الحجر والأرض ومنتجات البحر، ودعائم الكتابة: ورق البردى، والرق، والورق، والمنتجات الطبية والرقيق. وفي معرض بحثه عن التبادل التجاري

يرى بأن تيارات هذا التبادل تمتد على طول شبكة من الطرق التي امتدت عند مراكز العمران الكبيرة في بلاد الإسلام. ففي الواجهة الشمالية بإيران وبآسيا الوسطى ثم ببلاد الترك ثم بالصين أو المناطق الشمالية الغربية للهند وفي الواجهة الجنوبية الشرقية تمتد الطرق البحرية في المحيط الهندي من بلاد ما بين النهرين والخليج العربي من جهة ومن مصر والبحر الأحمر من جهة أخرى في اتجاه الشواطىء الهندية الغربية وملبار، ثم في اتجاه سيلان وأندونيسيا والهند الصينية وجنوب الصين، أو في اتجاه بلاد الزنج (شواطىء أفريقيا الشرقية)، وجزيرة مدغشقر.

وفي نهاية الكتاب يقرر الكاتب بأن العالم الإسلامي لم يكن خلال الفترة بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر الميلادي مجرد نقطة انطلاق لتاريخ طويل، تاريخ الحضارة الإسلامية لأن العالم الإسلامي كان في هذه الفترة أيضاً نقطة وصول، وهو لا يزال حتى الوقت الحاضر قمة تاريخ طويل، تاريخ الحضارة التي تقوم على المدن في الشرق القديم الذي شهد أقدم الحضارات البشرية المعروفة والتى تجمعت خلال لحظة من التاريخ في إمبراطورية الإسكندر الكبير. وبعد القرن الحادي عشر الميلادي تحول مركز الثقل من العالم القديم ولم تعد في الشرق المدن الإسلامية الكبيرة. وبعد فتراتٍ من المصادمات، وفتراتٍ من الانتصار وأخرى من الانكسار أصبحت القوة الاقتصادية لعدّة قرون من خلال أوروبا الغربية. ومع ذلك وعلى الرغم من تدهوره الاقتصادي يرى المؤلف بأن الإسلام سيستمر وقتاً طويلاً مصدراً للإشعاع الثقافي في العالم الذي سيكون مديناً له بعلومه وخصوصاً علم الطب والفلسفة، وسيلعب العالم الإسلامي في الطب دوراً خطيراً في هذا الشأن ليس في عصر النهضة فحسب بل حتى القرن التاسع عشر الميلادي.